طواف الوداع

□ طـــواف الـــوداع □

وقد آن وداع البيت بالصلاة فيه ، وقد قال ﷺ : « صلاة في مسجدي أفضل من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام ، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من مائة ألف صلاة فيما سواه »[١].

فإذا انتهى من قضاء حوائجه ، وعزم على الرحيل ؛ فعليه أن يودع البيت بالطواف لحديث ابن عباس قال : كان الناس ينصرفون في كل وجه ، فقال النبي ﷺ : « لا ينفرنّ أحد حتى يكون آخر عهده الطواف بالبيت »[٢].

قال الدهلوي رحمه الله : « والسر فيه تعظيم البيت بأن يكون هو الأول وهو الآخر ، تصويرا لكونه هو المقصود من السفر ، وموافقة لعاداتهم في توديع الوفود ملوكها عند النفر . والله أعلم » .

قال الدهلوي: « قد شاهدنا عيانا أن البيت كالمحشو بقوة ملكية، فمن طاف البيت فهو في صلاة يخوض في رحمة الله، ويعطف دعوات الملأ الأعلى إليه إذا فعله الإنسان إيمانا بأمر الله، وتصديقا لموعوده؛ كان تبيانا لإيمانه وشرحًا له » .

ولنترك شيخنا وإمامنا الصنعاني يصور هذه اللحظات :

وبات حجيج الله بالبيت محدقا ورحمة رب العرش ثمت[٣] تغشاه
تداعت رفاقا بالرحيل فما ترى سوى دمع عين بالدماء مزجناه

(١) صحيح : رواه أحمد من حديث جابر مرفوعا بإسناد صحيح . وصححه جمع ذكرهم الألباني في الإرواء ١١٢٩ .

(٢) رواه مسلم والبخاري .

(٣) ثمّتَ : اسم يشار به للمكان البعيد ظرف لا ينصرف .

لفرقة بيت الله والحجر الذي ... لأجلهما صعب الأمور سلكناه
وودعت الحجاج بيت إلهها ... وكلهم تجري من الحزن عيناه
فلله كم باك وصاحب حسرة ... يود بأن الله كان توفاه
فلو تشهد التوديع يوما لبيته ... فإن فراق البيت مر وجدناه
فما فرقة الأولاد والله إنه ... أمر وأدهى ذاك شيء خبرناه
فمنْ لم يجرب ليس يعرف قدره ... فجرّبْ تجد تصديق ما قد ذكرناه
لقد صدّعت أكبادنا وقلوبنا ... لما نحن من مرّ الفراق شربناه
والله لولا أن نؤمل عودة ... إليه لذقنا الموت حين فجعناه

وانظر يرحمك الله إلى طبيب القلوب ذي القلب الرقيق .. النوراني المخبر ابن القيم كيف يستمطر الدمع وهو يصف لحظة وداع البيت :

ولما تقضّوا من منى كل حاجة ... وسالت بهم تلك البطاح تقدموا
إلى الكعبة البيت الحرام عشية ... وطافوا بها سبعا وصلّوا وسلموا
ولما دنا التوديع منهم وأيقنوا ... بأن التداني حبله متصرم
ولم يبق إلا وقفة لمودع ... فلله أجفان هناك تسجم
ولله أكباد هنالك أودع الـ ... ـغرام بها فالنار فيها تضرم
ولله أنفاس يكاد بحرها ... يذوب المحب المستهام المتيم
فلم تر إلا باهتا متحيرا ... وآخر يُبدي شجوه يترنم
رحلت وأشواقي إليكم مقيمة ... ونار الأسى مني تشب وتضرم
أودعكم والشوق يثني أعنتي ... وقلبي أمسى في حماكم مخيّمُ
هناك لا تثريب يوما على امرىء ... إذا ما بدا منه الذي كان يكتم
فيا سائقين العيس بالله ربكم ... قفوا لي على تلك الربوع وسلموا
وقولوا محب قاده الشوق نحوكم ... قضى نحبه فيكم تعيشوا وتسلموا
وأتبع طرفي وجهة أنتم بها ... فلي بحماها مربع ومخيم
أسائل عنكم كل غاد ورائح ... وأومي إلى أوطانكم وأسلم

وكم يصبر المشتاق عمن يحبه   وفي قلبه نار الأسى تتضرّمُ
وحبكم أصل الهدى ومداره   عليه وفوز للمحب ومغنم
وتفنى عظام الصب بعد مماته   وأشواقه وقف عليـه محرم